أبــو العــلاء المعــري مــــــــؤرخاً

□ أ. د. سهيل زكار *

كـان أبـو العـلاء المعـري، أحمـد بـن عـبد الله التنوخـي (٣٦٣ ـ٤٤٩هـ/ ٩٧٣ـ ١٠٥٧م) – وما يزال – يتمتع منذ حوالي العشرة قرون بشهرة واسعة جداً، وقد حظي هو ومؤلفاته الكثيرة بدراسات واسعة، وكان لرسالته " الغفران " أبعد الآثار العربية والإنسانية، وقد تعامل العلماء طويلاً مع الرسالة من جوانب كثيرة، إلا – حسب معرفتي – الجانب التأريخي.

وكان المعري خير من مثّل الحضارة العربية، بعد انبعاث الشخصية الشامية منذ تأسيس سيف الدولة الحمداني لبلاطه في حلب، فقد كانت بلاد الشام هي التي شهدت أولى النشاطات العربية الحضارية بعد قيام الإسلام، ولكن الثورة العباسية وسقوط الدولة الأموية، والموقف العباسي، المعادي بشكل عام لكل ما هو شامي، وأد إلى أبعد الحدود النشاطات الثقافية الشامية، فقد ماتت مدرسة الأوزاعي الفقهية وجرى تجريح رواة الحديث من الشاميين، ودفنت عبقريات شامية كثيرة حيث قامت، ونجا فقط من أوتي الحظ بالذهاب إلى بغداد، مثل أبي تمام والبحتري ......

ولكن مع بلاط سيف الدولة تهيأت الآن الفرص ليس فقط أمام الشاميين بل حتى لبعض العراقيين والمشارقة لنيل الشهرة مثلما حدث مع المتنبي وأبي علي الفارسي والفارابي، صحيح أن دولة سيف الدولة لم تعمّر طويلاً ، ولكن استمرت النهضة من بعده في حلب وتمركزت في معرة النعمان لاسيما في العصر المرداسي، وذلك أن المرداسيين اعتنوا بالشعراء، كما ضمنوا حرية التفكير والتعبير، ويمكن لنا مشاهدة ذلك في أخبار اللقاء المشهور الذي جرى بين صالح بن مرداس ـ مؤسس الدولة ـ وأبي العلاء المعري، وانفرد المرداسيون في الحضارة العربية بأنهم كانوا يمنحون النوابغ في دولتهم لقب أمير مع دار وعطاء مدى الحياة.

❖ أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق.

واهتم عدد كبير من المؤرخين الأوائل بأخبار أبي العلاء وأعتقد أن أفضل من ترجم له وأنصفه كان ابن العديم، مؤرخ حلب وأعظم مؤرخي بلاد الشام عبر العصور. وانتزعت من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم الذي كنت قد نشرته محققاً في دمشق عام ١٩٨٨م ترجمة أبي العلاء، إنما اختزلتها كثيراً لتصلح مقدمة لبحث عن المعري المؤرخ، من خلال كتابه رسالة الغفران.

ترجمة أبي العلاء المعري

(من بغية الطلب لابن العديم بعد الاختصار الكبير)

أحمد بن عبد الله بن سليمان ..... أبو العلاء بن أبي محمد التنوخي المعري. قرأ النحو واللغة على أبيه أبي محمد عبد الله بمعرّة النُعمان، ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب، وحدّث عن أبيه وجدّه سليمان بن محمد وأبي الفتح محمد بن الحسن بن رَوْح، ويحيى بن مِسْعَر (١٥٠ - ظ) أبي زكريا، وأخويه أبي المجد وأبي الهيثم عبد الواحد ابني عبد الله، وأبي الفرج عبد الصمد بن أحمد بن عبد الصمد الفقيه الضرير الحمصي، وأبي بكر محمد بن يوسف الرقي المعروف بابن كراكير، وأبي بكر محمد بن عبد الرحمن ابن عمرو بن عبد الرحيم الرحبي، والقاضي أبي عمرو عثمان بن عبد الله الطَرَسُوسي قاضي معرة النعمان، وجدته أم سلمة بنت الحسن بن إسحق بن بُلْبُل.

ورحل إلى بغداد سنة ثماني وتسعين وثلاثمئة، ودخلها سنة تسع وتسعين وثلاثمئة، وسمع بها أبا الحسن علي بن عيسى الرَبَعي، وأبا أحمد عبد السلام بن الحسين البصري المعروف بالواجكا.

وقرأ عليه ببغداد أبو القاسم التنوخي وابن فورجه، وروى عنه أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، وأقام مدة بالمعرة يقرأ عليه، وأبو المكارم عبد الوارث بن محمد بن عبد المنعم الأبهري وأبو محمد الحسن بن علي بن عمر المعروف بقحف العلم، وابن أخيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد، والشيخ أبو الحسين علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زُريق، وجد جدي أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن أبي جرادة، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبيان، والقاضي أبو الفتح بن أحمد بن أبي الروس (١٥١ - و) السروجي، والخليل بن عبد الجبار بن عبد الله التميمي القُرَّائي، وعثمان بن أبي بكرالسفاقسي المغربي، وأبو التمام غالب بن عيسى بن أبي يوسف الأنصاري الأندلسي، وأبو الخطاب العلاء بن حزم الأندلسي، وأبو الحسن علي بن أخيه أبي المجد بن عبد الله بن سليمان، وزيد ابن أخيه أبي الهيثم عبد الواحد، وأبو غالب همّام بن الفضل بن جعفر بن المهذب، وأبو صالح محمد بن المهذب بن علي ابن المهذب، وأبو اليقظان أحمد بن محمد بن أبي الحُوَاري، وأبو العباس أحمد بن خلف المُمْتِع، وابن

أخته إبراهيم بن الحسن البليغ، ومحمد بن الخضر المعروف بالسابق ابن أبي مهزول، وأبو الفضل بن صالح المعريون، والقاضي أبو القاسم المحسن بن عمرو التنوخي المعري، وأبو القاسم عبيد الله بن علي بن عبد الله الرَقِّي الأديب، وأبو الحسن رشأ بن نظيف بن ما شاء الله، وأبو نصر محمد بن محمد بن هُمَيْماه السَالار، وأبو الحسن الدُلفي الشاعر المصِّيصي، وأبو سعد إسماعيل بن علي السَّمَّان، وأبو الوليد الدَرَبَنْدي، وأبو طاهر محمد بن أحمد بن أبي الصَّفر الأنباري، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني، وأبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسين التبريزي، وأبو المظفر إبراهيم بن أحمد بن الليث الأزدي.

وكتّابه الذين كانوا يكتبون مصنفاته وما يمليه: أبو الحسن علي بن عبيد الله بن أبي هاشم، وابنه أبو الفتح محمد بن علي، وجعفر بن أحمد بن صالح، وأبو إسحق إبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب (١٥١ - ظ) القارئ.

وكان خشن العيش، قنوعاً من الدنيا بملك ورثه من أبيه، والناس فيه مختلفون على مذهبين فمنهم: من يقول أنه كان زنديقاً ملحداً، ويحكون عنه أشياء تدل على كفره، ومنهم من يقول أنه كان على غاية من الدين والزهد، وأنه كان يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة وظلف العيش، وأنه كان مقتنعاً بالقليل، غير راغب في الدنيا، وسأورد من قول كل فريق ما فيه كِفاية ومَقْنع، وقد أفردت كتاباً جامعاً في ذكره، وشرحت فيه أحواله وتبينت وجه الصواب في أمره وسمته ((بدفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعري)) فمن أراد معرفة حقيقة حاله فلينظر في ذلك الكتاب فإن فيه غنية في بيان أمره[1] وتحقيق صحة اعتقاده، وعلو قدره إن شاء الله تعالى .....

قرأت بخط أحمد بن علي بن عبد اللطيف المعري: وولد ـ يعني أبو العلاء ـ يوم الجمعة عند غروب الشمس لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمئة.

وقرأت في تاريخ جمعه أبو غالب هَمَّام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري التنوخي قال: سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، فيها ولد الشيخ أبو العلاء أحمد ابن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي، يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول.

وسير إلي قاضي معرة النعمان أبو المعالي أحمد بن مدرك بن سليمان جزءاً بخطه يتضمن أخبار بني سليمان، نقله من نسخة عنده، فقال في ذكر أبي العلاء: ولد يوم الجمعة قبل مغيب الشمس لسبع وعشرين ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمئة، واعتل علة الجدري التي ذهب بصره فيها في جمادى الأولى من سنة سبعٍ وستين وثلاثمئة .....

---

[1] نشرت قطعة من هذا الكتاب أولاً من قبل الشيخ راغب الطباخ في أعلام النبلاء ثم أعيد نشرها في كتاب تعريف القدماء بأخبار أبي العلاء، وقد أشرت في مقدمتي إلى وجود نسخة كاملة من هذا الكتاب.

ورحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين، ودخلها سنة تسعٍ وتسعين، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ولزم منزله عند منصرفه من بغداد مدةً سنة أربعمئة، وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله ولذهاب عينيه، وتوفي بين صلاتي العشاءين ليلة الجمعة الثالث من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمئة، فكان عمره ستاً وثمانين سنة إلا أربعة وعشرين يوماً، ولم يأكل اللحم من عمره خمساً وأربعين سنة، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة، رحمة الله عليه .....

وقرأت فيما سيّره القاضي أبو المعالي أحمد بن مُدرك قاضي المعرة من أخبار بني سليمان قال: ولما قدم من بغداد ـ يعني أبا العلاء ـ عزم على العُزْلة والانقضاب من العالم فكتب إلى أهل معرة النعمان:

بســم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب إلى السّكَن المقيم بالمعرة شملهم الله بالسعادة، من أحمد بن عبد الله بن سليمان، خصّ به من عرفه وداناه، سَلَّم الله الجماعة ولا أسلمها ولمّ شعثها ولا آلمها.

أما الآن فهذه مناجاتي بعد منصرفي عن العراق، أهل الجَدَل، وموطن بقية السّلف، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت، وودّعت الشبيبة فمضت، وحلبت الدهر أشطره، وخبرت خيره وشره، فوجدت أقوى ما أصنعه أيام الحياة أن اخترت عزلة تجعلني من الناس كبارح الأَرْوى[1] من سانح النعام، وما ألَوت نصيحةً لنفسي، ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حَيِّزي، فأجمعت على ذلك، واستخرت الله فيه بعد جلائه عن نفر يوثق بخصائلهم، فكلهم رآه حزماً وعدّة إذا تم (١٥٣ - ظ) رشداً، وهو أمر أسري عليه بليل قضى سنة، وخبت به النعامة، ليس بنسج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة، ولكنه غَذِيُّ الحِقَب المتقادمة، وسليل الفكر الطويل، وبادرت إعلامهم ذلك مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتي بسكناه ليلقاني فيه، فيتعذر ذلك عليه، فأكون قد جمعت بين سمجين: سوء الأدب، وسوء القطيعة، وربّ ملوم لا ذنب له.

والمثل السائر خلّ امرأً وما اختار[2]، وما أسمحت القرون الإياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة: نَبذةً كنَبذة فتيق النجوم[3]، وانقضاباً من العالم كانقضاب القابية من القوب[4]، وثباتاً في البلد إن جال أهله

---

[1] الأروى: أنثى الوعل. القاموس.

[2] المثل ((دع امرأً وما اختار)) في أمثال أبي عبيد. ط. دمشق ١٩٨٠: ١١٢.

[3] لعله يريد به الليل وفي القاموس الفتيق: الصبح المشرق.

[4] في القاموس: تخلصت قابة من قوب: أي بيضة من فرخ، يضرب لمن انفصل عن صاحبه.

من خوف الروم، فإن أبى من يُشفق عليّ أو يظهر الشفق إلا النفرة مع السواد كانت نفرة الأعضب[١] والأدْمَاء[٢].

وأحلف ما سافرت استكثر من النَشَب، ولا أتكثَّر بلقاء الرجال، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم، فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن بإقامتي فيه، والجاهل مغالب القدر، فلهيت عما استأثر به الزمان، والله يجعلهم أحلاس الأوطان، لا أحلاس الخيل والركاب، ويسبغ عليهم النعمة سُبوغ القَمْراء الطلقة على الظبي الغَرير، ويُحسن جزاء البغداديين فلقد وصفوني بما لا أستحق (١٥٤ - و) وشهدوا لي بالفضيلة على علم وعرضوا علي أموالهم عرض الجد، فصادفوني غير جذل بالصفات ولا هش إلى معروف الأقوام، ورحلت وهم لرحلتي كارهون، وحسبي الله ((وعليه فليتوكل المتوكلون))[٣]....

وكان أبو العلاء مفرط الذكاء والحفظ، وأخبرني والدي رحمه الله فيما يأثره عن أسلافه أنه قيل لأبي العلاء: بم بلغت هذه الرتبة في العلم؟ فقال: ما سمعت شيئاً إلا حفظته، وما حفظت شيئاً فنسيته.

وحكى لي أيضاً والدي فيما يأثره عن سلفه قال: سار أبو العلاء من المعرة إلى بغداد، فاتفق عند وصوله إليها موت الشريف أبي أحمد الحسين والد المرتضى والرضي، فدخل إلى عزيته، والناس مجتمعون، فخطا الناس في المجلس، فقال له بعضهم ولم يعرفه: إلى أين يا كلب؟ فقال: الكلب من لم يعرف للكلب كذا وكذا اسماً، ثم جلس في أخريات الناس إلى أن أنشد الشعراء، فقام وأنشد قصيدته الفائية التي أولها (١٥٥ - و)

أودى فليت الحادثات كفاف ... مال المسيف وعنبر المستاف

يرثي بها الشريف المتوفى، فلما سمعها الرضي والمرتضى قاما إليه ورفعا مجلسه إليهما وقالا له: لعلك أبو العلاء المعري؟ فقال: نعم، فأكرماه واحترماه، وطلب أن تعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد، فأدخل إليها وجعل لا يعرض عليه كتاب إلا وهو على خاطره، فعجبوا من حفظه[٤] .....

وحكى تلميذه أبو زكريا التبريزي أنه كان قاعداً في مسجده بمعرة النعمان بين يديه يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه، قال: وكنت قد أتممت عنده سنتين ولم أر أحداً من بلدي، فدخل مُغافضة[٥] المسجد بعض

---

(١) الأعضب: من لا ناصر له والقصير اليد.

(٢) الأدماء: أي الفقراء.

(٣) سورة يوسف - الآية: ٦٧.

(٤) ويروى أنه دب الخلاف إثر ذلك بينه وبين الشريف المرتضى بسبب المتنبي. انظر الخبر مفصلاً في معجم الأدباء (ط. بيروت ١٩٨٠) ١٢٣/٢ - ١٢٤.

(٥) أي فجأة وعلى حين غرة. القاموس.

جيراننا للصلاة فرأيته وعرفته وتغيرت من الفرح، فقال لي أبو العلاء: ما أصابك، فحكيت له أني رأيت جاراً لي بعد أن لم ألق أحداً من بلدي منذ سنين، فقال لي: قم وكلمه، فقلت: حتى أتمم السَّبَق[١]، فقال: قم أنا أنتظرك، فقمت وكلمته بالأذربيجية شيئاً كثيراً، إلى أن سألت عن كل ما أردت، فلما عدت وقعدت بين يديه قال لي: أي لسان هذا؟ قلت: هذا لسان أهل أذربيجان، فقال: ما عرفت اللسان وما فهمته غير أني حفظت ما قلتماه، ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلناه، فجعل (١٥٧ - و) جاري يتعجب غاية العجب، ويقول: كيف حفظ شيئاً لم يفهمه.....

ومن أعجب ما بلغني من ذكائه ما حدثني به والدي رحمه الله قال: بلغني أنه لما سافر أبو العلاء إلى بغداد وأقام بها المدة التي أقامها، اجتاز في طريقه وهو متوجه بشجرة، وهو راكب على جمل، فقيل له طأطئ رأسك لئلا تلحقك الشجرة، ففعل لك، فلما عاد من بغداد ووصل إلى ذلك الموضع، وكانت الشجرة قد قطعت، طأطأ رأسه (١٥٨ - ظ) فقيل له في ذلك، فقال: ها هنا شجرة، فقال له: ما ها هنا شجرة، فقال: بلى، فحفروا في ذلك الموضع، فوجدوا أصلها، والله أعلم .....

وسمعت والدي يقول: قيل إن أبا العلاء عارض القرآن العزيز، فقيل له: ما هذا إلا مليح إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن، فقال: حتى تصقله الألسن أربعمائة سنة وعند ذلك إنظروا كيف يكون.

وقرأت بخط الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي في كتاب تتبع الكلام فيه على الصرفة[٢]، ونصر فيه مذهب المعتزلة في أن القرآن ليس (١٦٠ - ظ) بمعجز في نفسه، لكن العرب صرفوا عن معارضته، فقال فيه: وقد حمل جماعةً من الأدباء قول أرباب الفصاحة أنه لا يتمكن أحد من المعارضة بعد زمان التحدي على أن نظموا على أسلوب القرآن وأظهر ذلك قوم وأخفاه آخرون ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه: أقسم بخالق الخيل والريح الهابة بليل بين الشَرَط ومطالع سهيل إن الكافر لطويل الويل، وإن العمر لمكفوف الذيل، اتق مدارج السَّيل، وطالع التوبة من قُبَيْل تَنْج وما أخالك بناج.

وقوله: أذلت العائدة أباها، وأضاءت الوَهْدَة ورُباها، والله بكرمه احتباها، أولاها الشرف بما حباها، أرسل الشمال وصباها ((ولا يخاف عقباها))[٣].

---

[١] أي ما سبق لي أن بدأت بقراءته.

[٢] صرف الحديث أن يزاد فيه ويحسن من الصرف بالدراهم. القاموس. والمراد هنا أن الله تعالى صرف القوى البشرية عن المعارضة ولذلك عجزوا ولولا صرفه تعالى لهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله. هكذا يزعم.

[٣] سورة الشمس – الآية: ١٥.

وهذا الكلام الذي أورده ابن سنان هو في كتاب ((الفصول والغايات في تمجيد الله تعالى والعظات))[١] وهو كتاب إذا تأمله العاقل المنصف علم أنه بعيد عن المعارضة وهو بمعزل عن التشبه بنظم القرآن العزيز والمناقضة، فإنه كتاب وضعه على حروف المعجم، ففي كل حرف فصول وغايات، فالغاية مثل قوله: نباج، والفصل ما يقدم الغاية، فيذكر فصلاً يتضمن التمجيد أو الموعظة ويختمه بالغاية على الحرف من حروف المعجم، مثل تاج، وراج، وحاج، كالمخمسات والموشحات في الشعر.

وله كتاب آخر كبير نحو ستين مجلداً على هذا الوضع أيضاً سماه ((الأيك (١٦١ - و) والغصون)) وسماه ((الهمزة والردف)) يتضمن أيضاً تمجيد الله تعالى والثناء عليه والمواعظ، ولم ينسبوه فيه إلى معارضة القرآن العزيز، وإنما نسبوه في الفصول والغايات لا غير، وقد كان له جماعة يحسدونه على فضله ومكانته من أبناء زمانه تصدّوا لأذاه، وتتبعوا كلامه وحملوه على غير المقصد الذي قصده كما هو عادة أبناء كل زمان في افتراء الكذب واختلاق البهتان، ووقفت له على كتاب وضعه في الرد على من نسبه إلى معارضة القرآن والجواب عن أبيات استخرجوها من نظمه رموه بسببها بالكفر والطغيان، سمى الكتاب ((بزجر النابح)) ورد فيه على الطاعن في دينه والقادح .....

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقي

..... كان أبو نصر المنازي أحد وزراء نصر الدولة بن مروان بديار بكر، فأرسله إلى مصر رسولاً فوصل إلى المعرة، ودخل إلى أبي العلاء، مسلماً، فتناشدوا وانبسط أحدهما إلى الآخر، فذكر أبو العلاء ما يقاسي من الناس وكلامهم فيه فقال له أبو نصر: ماذا يريدون منك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة! فقال: والآخرة أيضاً والآخرة أيضاً، وأطرق ولم يكلمه إلى أن قام.....

ذكر ابن السيد البطليوسي في شرح سقط الزند لأبي العلاء قال: وكان المعري متديناً، كثير الصيام والصدقة، يسمع له بالليل هينمة[٢] لا تفهم، وكان لا يقرع أحد عليه الباب حتى تطلع الشمس، فإذا سمع قرع الباب علم أن الشمس قد طلعت، فقطع تلك الهينمة وأذن في الدخول عليه، وكان لا يرى أكل اللحم، ولا شرب المسكر ولا النكاح، وكان ذا عفة ونزاهة نفسٍ إلا أنه كان مخالفاً لما عليه أهل السُنَّة.

---

(١) طبع في القاهرة ١٩٧٧م بتحقيق محمود حسن زناتي.

(٢) الهينمة: الصوت الخفي. القاموس.

وقول ابن السيد: ((أنه كان مخالفاً لما عليه أهل السنة)) لا أعلم بأي طريق وقعت المخالفة، وقد وصفه بهذه الصفات المحمودة، وكان شافعي المذهب من أهل السنة والجماعة .....

قرأت بخط أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد سليمان أو بخط أبيه أبي محمد عبد الله فإن خطيهما متشابهان، في ورقة وقعت إليّ، ذكر فيها شيئاً من أحوال أبي العلاء، وقال فيها: إن المستنصر بالله صاحب مصر بذل له ما لبيت المال بمعرة النعمان من الحلال، فلم يقبل منه شيئاً .....

قال: وكان رضي الله عنه يرمي من أهل الحسد له بالتعطيل، وتعَمَّل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه، وإيثاراً لتلاف نفسه، فقال رضي الله عنه:

حاول إهواني قوم فما واجهتهم إلا بإهوان
تخَوَّنوني بسعاياتهم فغيروا نية إخواني
لو استطاعوا لوشوا بي إلى المريخ في الشهب وكيوان

.....

قال: وكان يدفع الله سبحانه عنه مكائد الأعداء، ويقوم له من المقدمين من ينتخي له، ويذب عنه ....

قرأت بخط ابن سنان الخفاجي في ذكر أبي العلاء بن سليمان أنه ترك أكل اللحم تزهداً، وكان مع ذلك يصوم أكثر زمانه ويفطر على الخل والبقل ويقول: إن في هذا، لخيراً كثيراً....

قال أبو زكريا التبريزي: كان المعري يجري رزقاً على جماعة ممن كان يقرأ عليه، ويتردد لأجل الأدب إليه، ولم يقبل لأحد هدية ولا صلة، وكان له أربعة رجال من الكتاب المجودين في خزانته وجارية يكتبون عنه ما يرتجله ويمليه....

قال أبو زكريا التبريزي: ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري، ولقد اتفق قوم ممن كان يقرأ عليه ووضعوا حروفاً وألفوها كلمات وأضافوا إليها من غريب اللغة ووحشيها كلمات أخرى وسألوه عن الجميع على سبيل الامتحان، فكان كلما وصلوا إلى مما ألفوه ينزعج لها وينكرها ويستعيدها مراراً ثم يقول: دعوا هذه، والألفاظ اللغوية يشرحها ويستشهد عليها حتى انتهت الكلمات، ثم أطرق ساعة مفكراً ورفع رأسه وقال: كأني بكم وقد وضعتم هذه الكلمات لتمتحنوا بها معرفتي وثقتي في روايتي، والله لئن لم تكشفوا لي الحال وتدعوا المحال، وإلا هذا فراق ما بيني وبينكم، فقالوا له: والله الأمر كما قلت، وما عدوت ما قصدناه، فقال: سبحان الله، والله ما أقول إلا ما قالته العرب وما أظن أنها نطقت بشيء ولم أعرفه ....

قرأت بخط أبي الفتح محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير في روزنامج أنشأه لولده الحسن يذكر فيه رحلته إلى الحج من أذربيجان وعبوره بحلب ومعرة النعمان في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وكان رجلاً جليلاً وفاضلاً، وسنذكر ترجمته في موضعها إن شاء الله.

ذكر معرة النعمان ثم قال وَحسَنَتُها وغرّ وديباجتها وعالمها وروايتها وعلاّمتها ونسابتها الشيخ الجليل العالم أبو العلاء أحمد عبد الله بن سليمان المعروف برهين المحبسين، وهو العالم المقصود (١٧٢ - ظ) والبحر من الأدب المورود، والإمام الموجود، والأديب الذي يشهد بفضله الحسود، والزاهد الذي لو أحلّ الدين السجود لوجب له السجود، والفاضل الذي تُنضى إليه الركائب، وتُركب إلى الاقتباس منه الطريق الموَعَّر واللاحب[1]، وتهجر لمواصلته المناسب والمُصاحب، وتُطوى إليه البلاد، ويُخالف للاكتحال به الرقاد ويحالف السهاد ليؤخذ منه العلم المحض والسداد، ويستفاد من مجالسته العلم المطلوب والرشاد، يفقد لديه الزيغ والإلحاد والفُضُول في الدين والعناد، الفهم ملء إهابه، والفضل حشو ثيابه، شخص الأدب ماثلاً، ولسان البلاغة قائلاً، جمال الأيام، وزينة خواص الأنام، وفارس الكلام، والمقدم في النثار والنظام، وقد لزم بيته فما يُرى متبَرزاً، وألف داره وأصبح فيها مُعتَمداً متعززاً لا يؤنسه عن الوَحشة إلا الدفاتر، ولا يصحبه في الوحدة إلا المحابر، وقد اقتصر من دنياه على الزاوية، وأنس الاعتزال والعافية، وقصر همته على أدب يفيده، وتصنيف يجيده، وقريض ينظمه، ونثر ينثره فيحكمه، ومُتَعَلَّم يفضل عليه، ومَسترفد صُعلوك يحسن إليه، فهو عذب لمن شرب، عف المطلب، نقي الساحة من (١٧٣ - و) المآثم، بريء الذمة من الجرائم يرجع إلى نفس أمَّارة بالخير، بعيدة من الشر، قد كُفَّ عن زخرف الدنيا ونضرتها، وغُضّ طرفه عن متاعها وزهرتها، ونقّى جيبه فأمن الناس عيبه، قد استوى في النزاهة نهاره وليله، فلم يتدنّس بفاحشة قط ذيله، وعاد لإصلاح المعاد بإعداد الزاد، واعتزل هذه الغَدّارة، وأفرج عن المراد.

وله دار حسنة يأويها، ومعاش يكفيه ويمونه، وأولاد أخ باق يخدمونه ويقرؤون بين يديه، ويدرسون عليه، ويكتبون له، ووراق برسمه مستأجر، ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة، وما يفضل عنه يفرقه على أخيه وأولاده واللائذين به الفقراء والقاصدين له من الغرباء، ولا يقبل لأحد دقيقاً ولا جليلاً، فقد استعمل قول النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا أتاه فقال: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال: رجل يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه. قال ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره[2] وما روي أن عقبة بن عامر قال: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أملك عليك لسانك وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك فقد اتخذ الله تعالى ذكره صاحبا، وترك الناس جانبا.

---

(١) اللاحب: الطريق الواضح. القاموس.

(٢) انظر كنز العمال: ١١/ ٣٠٩٦٨.

فمضيت إليه مسلماً ، وللاستسعاد به مغتنماً ، فرأيت شيخاً (١٧٣ - ظ) حكمت بأنه مولود في طالع الكمال، وأنه جملة الجمال، شمس عصره، وزينة مصره، وعلم الفضل المطلوب، وواسطة عقد الأدب المحبوب يزيد على العلماء زيادة النور على الظلام، والكرام على اللئام، وينيف عليهم إنافة صفحة الشمس على كرة الأرض ويشآهم [١] كما يشأى السابق يوم الامتحان والعرض.....

كان ظهر بمعرة النعمان منكر في زمن صالح بن مرداس، فعمد شيوخ البلد إلى إنكار ذلك المنكر، فأفضى إلى أن قتلوا الضامن بها، وأهرقوا الخمر، وخافوا فجمعهم إلى حلب واعتقلهم بها، وكان (١٤٧ - و) فيهم بعض بني سليمان، فجاء الجماعة إلى الشيخ أبي العلاء وقالوا له: أن الأمر قد عظم وليس له غيرك، فسار إلى حلب ليشفع فيهم، فدخل إلى بين يدي صالح، ولم يعرفه صالح، ثم قال له: السلام عليك أيها الأمير.

الأمير أبقاه الله كالسيف القاطع، لان وسطه، وخشن جانباه، وكالنهار الماتع قاظ وسطه، وطاب جانباه، ((خذ الأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)) [٢]، فقال له: أنت أبو العلاء؟ فقال: أنا ذاك، فرفعه إلى جانبه، وقضى شغله وأطلق له من كان من المحبسين من أهل المعرة، فعمل فيه ـ قال لي: قال لي أبي: قال لي جدي: وأنشدنيها لنفسه:

ولما مضى العمر إلا الأقل ... وحان لروحي فراق الجسد
بعثت رسولاً إلى صالح ... وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني هديل الحمام ... وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق ... فكم محنة نفقت ما كسد

وقرأت هذه الحكاية في تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري، وذكر أن اجتماع أبي العلاء بصالح كان بظاهر معرة النعمان قال: سنة سبع عشرة وأربعمائة فيها : صاحت امرأة في الجامع يوم الجمعة، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها، فنفر كل من في الجامع إلا القاضي والمشايخ، وهدموا الماخور، وأخذوا خشبه ونهبوه، وكان أسد الدولة صالح في (١٧٤ - ظ) نواحي صيدا.

---

[١] شآه يشآه إذا سبقه. اللسان.
[٢] سورة الأعراف — الآية: ١٩٩.

ثم قال: سنة ثماني عشرة وأربعمئة فيها: وصل أسد الدولة صالح بن مرداس إلى حلب وأمر باعتقال مشايخ المعرة وأماثلها، فاعتقل سبعون رجلاً في مجلس الحصن سبعين يوماً، وذلك بعد عيد الفطر بأيام، وكان أسد الدولة غير مؤثر لذلك، وإنما غلب تاذرس[١] على رأيه وكان يوهمه أنه يقيم عليهم الهيبة، ولقد بلغنا أنه خاطبه في ذلك فقال له: أقتل المهذب وأبا المجد بسبب ماخور، ما أفعل وقد بلغني أنه دعي لهم في آمدوميافارقين، وقطع عليهم ألف دينار، واستدعى الشيخ أبا العلاء بن عبد الله بن سليمان رحمه الله بظاهر معرة النعمان، فلما حصل عنده في المجلس قال له الشيخ أبو العلاء: مولانا السيد الأجل، أسد الدولة ومقدمها وناصحها، كالنهار الماتع اشتد هجيره وطاب أبراده[٢]، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حداه، ((خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين)) فقال صالح: قد وهبتهم لك أيها الشيخ، ولم يعلم الشيخ أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه، ثم قال الشيخ أبو العلاء بعد ذلك شعرا:

تغيبت في منزلي برهةً ... ستير العيون فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقل ... وحم لروحي فراق الجسد (١٧ -ظ)
بعثت شفيعا إلى صالح ... وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام ... وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق ... فكم نفقت محنة ما كسد

قلت: وبلغني في غير هذه الرواية أنه قال بيتين حين أطلق صالح أهل المعرة:

نجى المعرة من براثن صالح ... ربٌّ يداوي كل داء معضل
ما كان لي فيها جناح بعوضة ... الله ألحفهم جناح تفضل[٣]

.....

وقرأت بخط أبي الفضل هبة الله بن بطرس الحلبي النصراني المعروف بابن شرارة: لزم أبو العلاء منزله من سنة أربعمئة إلى توفي يوم الجمعة لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول من سنة تسع وأربعين بمعرة النعمان.

---

(١) كان وزيره ومدبر أمره وقد قتل معه في معركة الأقحوانة.
(٢) الأبردان: الظلّ والفَيْء. اللسان.
(٣) انظر كتابي ـ بالإنكليزية ـ إمارة حلب: ٢٤٥، ٢٤٩.

وقرأت في الجزء الذي سيره لي قاضي المعرة أبو المعالي بن سليمان في أخبار بني سليمان أنه توفي رحمه الله وقت صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول من سنة تسع وأربعين وأربعمئة، ودفن في مقابر أهله بمعرة النعمان، وصلى عليه ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان رحمه الله .....

..... وكان مرضه ثلاثة أيام ومات في اليوم الرابع ولم يكن عنده غير بني عمه، فقال لهم في اليوم الثالث: اكتبوا، فتناولوا الدوى والأقلام، فأملى عليهم غير الصواب، فقال القاضي أبو محمد: أحسن الله عزاءكم في الشيخ فإنه ميت، فمات في غداة غد، وإنما أخذ القاضي هذه المعرفة من ابن بطلان، لأن ابن بطلان ـ كان يدخل على أبي العلاء، ويعرف ذكاءه وفضله، فقيل له قبل موته بأيام قلائل: إنه أملى شيئا فغلط فيه، فقال ابن بطلان: مات أبو العلاء، فقيل: وكيف عرفت ذلك، فقال: هذا رجل (١٧٨ - ظ) فطن ذكي ولم تجر عادته بأن يستمر عليه سهو ولا غلط، فلما أخبرتموني بأنه غلط علمت أن عقله قد نقص، وفكره قد انفسد[1]، وآلاته قد اضطربت، فحكمت عليه عند ذلك بالموت والله أعلم.

قرأت بخط بعض البغداديين، قيل: لما مات أبو العلاء المعري سامحه الله وقف على قبره سبعون شاعراً من أهل المعرة، فأنشد كل منهم قصيدة يرثيه بها .....

وزرت قبر أبا العلاء في البرية التي فيها مقابر أهله داخل معرة النعمان، بالقرب من آدر بني سليمان، رحمه الله)).

لقد أورد المعري في رسالة الغفران أخباراً تاريخية كثيرة، تعلق بعضها بفترة ما قبل الإسلام، وبعضها الآخر بالعصور الإسلامية قبل أيامه، وأخيراً ـ وهو الأكثر أهمية ـ ما عاصره من أحداث، وكان أقرب كشاهد عيان لما رواه بحيادية شديدة ملتزمة.

وظهر المعري في الرسالة صاحب عقيدة إسلامية قائمة على العقل الذي يقود إلى اليقين، وقد أظهر في الرسالة ميولا شيعية معتدلة، ليس مسايرة للدولة المرداسية التي كانت شيعية اثني عشرية، ولا للخلافة الفاطمية في القاهرة، التي دانت لها الدولة المرداسية بالطاعة، بل صدوراً عن قناعاته وحباً لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فهو جعل الإمام علياً كرّم الله وجهه، رفيقاً ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم، يتولى تنفيذ أوامره ويوصل الناس إليه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يردّ للإمام علي رضي الله عنه توصية أو شهادة، من ذلك أن علياً ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هذا أعشى

---

[1] كتب ابن العديم في الحاشية: ((صوابه فسد وإنما حكى رحمه الله لفظ ابن بطلان على صورته)) وكان ابن بطلان طبيباً عراقياً قدم إلى حلب وسبق أن نقل ابن العديم عنه في المجلدة الأولى.

قيس قد رُوي مدحه فيك، وشهد أنك نبي مرسل، فقال: هلا جاءني في الدار السابقة؟ فقال علي: قد جاء، ولكن صدته قريش، بحبه للخمر، فشفع لي، فأدخلت الجنة[١].

والمتأمل لهذا المثل يدرك أن المعري كان بعيداً عن التعصب معتدلاً متسامحاً، ولا شك أنه مثّل عصره الشامي خير تمثيل، لكن مما يؤسف له أن هذا الحال انقشع ـ لربما إلى الأبد ـ بعد وفاة المعري بأمد وجيز وحين اجتيحت بلاد الشام من قبل الغُزّ، الذين جاء بعدهم الفرنجة الصليبيون، وهكذا الانتقال من حكم عسكري غريب إلى عسكري محتل حتى فجر الاستقلال!

وشاهد آخر على مكانة الإمام علي رضي الله عنه لدى النبي صلى الله عليه وسلم، أن ابن القارح الذي من المفترض أنه هو الذي دفع المعري إلى كتابة رسالة الغفران، أراد أن يتشفع بحمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، فأجابه: إني لا أقدر على ما تطلب، ولكني أنفذ معك ـ أي رسول الله ـ إلى ابن أخي علي بن أبي طالب، ليخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، في أمرك[٢].

وهناك مثال آخر واضح حول ميول المعري إلى آل البيت، لدى حديثه عن الأخطل الشاعر، وعلاقة الأخطل المتينة بيزيد بن معاوية، فقد كان راضياً حين استفتاه الأخطل بقوله:

أكلت الدجاج فأفتيتها ... فهل في الخنانيص من مغمز

وكان يعلوه السرور حين كان يسمع الأخطل يقول متفاخراً بأبي سفيان، وما أنجزه في معركة أحد.

أخالد هاتي خبريني وأعلني ... حديثك إني لا أسرّ التناجيا
حديث أبي سفيان لما سما بها ... إلى أحد حتى أقام البواكيا
فلا خلف بين الناس أن محمداً ... تبوأ رمسا في المدينة ثاويا

وقوله:

ولست بصائم رمضان طوعاً ... ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائم كالطير أدعو ... قبيل الصبح: حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا ... وأسجد عند منبلج الصباح

---

(١) رسالة الغفران، ط، دار صادر، بيروت، ص١٠٩، ١١٠.
(٢) رسالة الغفران، ص١٥٨ــ ١٦١.

وكان المعري قد جعل عدداً من الشعراء من سكان الجنة مع أنهم عاشوا قبل الإسلام، ولكنه جعل بشار بن برد من أهل النار لزندقته، ولمجاهرته باللواطة، ولمدحه إبليس في قوله:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

واتخذ المعري موقفاً معادياً من القرامطة، ولاسيما قرامطة البحرين لاستباحتهم الكعبة وقتلهم الحجاج، واقتلاعهم للحجر الأسود مع ميزاب الكعبة، ذلك أن القرمطي أراد تعطيل الحج واعتقد بأن الحجر الأسود " مغناطيس القلوب " يجذب الحجاج إلى بيت الله الحرام، وكان واحد من القرامطة قتل جماعة من الحجاج وهو يقول: يا كلاب، أليس قال لكم محمد المكي: ومن دخله كان آمناً؟ أي أمن هنا؟.

وكان أبو طاهر الجنابي زعيم قرامطة البحرين وافى الحجاج في مكة يوم التروية من سنة سبع عشرة وثلاثمائة وهو يوم الإثنين لثمان خلون من ذي الحجة، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وقتلوهم حتى في المسجد الحرام والبيت، وقلعوا الحجر الأسود، وأنفذوه إلى هجر، وأخذوا كسوة الكعبة، وباب البيت، وطلع رجل منهم ليقلع الميزاب فسقط فمات، وخرج أمير مكة ابن مجلب في جماعة من الأشراف إلى أبي طاهر، وسألوه في أموالهم، فلم يشفعهم، فقاتلوه، فقتلهم جميعاً وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن الناس في المسجد الحرام، حيث قتلوا من غير غُسْلٍ، ولا كفن، ولا صلاة على أحد منهم، ونهب دور أهل مكة[١].

ورواية المعري لها أهمية خاصة حول مسألة الاعتقاد بأن الحجر الأسود هو "مغناطيس القلوب"، ومثلها في الأهمية طبيعة أتباع القرامطة من البداوة والأعراب، ففي ذلك دلالة على طبيعة عمق العقيدة الإسلامية في نفوس سكان مناطق الإحساء والبحرين في القرن الرابع للهجرة[٢].

وذكر المعري أيضاً قرامطة اليمن بزعامة علي بن الفضل، الذي استولى على حصن المذيخرة وغيره من حصون اليمن المنيعة، وأعلن عن قيامه عظة لذلك: خوطب برب العزة، وكوتب بها، فكانت له دار إفاضة يجمع إليها نساء البلدة كلها، ويدخل الرجال عليهن ليلاً.

قال من يوثق بخبره: دخلت إليها لأنظر، فسمعت امرأة تقول: يا بني! فقال: يا أمه، نريد أن نمضي أمر ولي الله فينا.

---

(١) سهيل زكار، **الجامع في أخبار القرامطة**، ط، دمشق، ٢٠٠٧م، ص٥٠٣.
(٢) **رسالة الغفران**، ص٢٢٧.

وكان يقول: إذا فعلتم هذا لم يتميز مال من مال، ولا ولد من ولد، لتكونوا كنفس واحدة، فغزاه الحسني من صنعاء فهزمه، وتحصن منه في حصن هناك، فأنفذ إليه الحسني طبيباً بمبضع مسموم، ففصده به فقتله [١].

وكان من أقدم من أتى على ذكر القرمطي علي بن الفضل، وعاصره، صاحب سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، الذي كان هو الحسني الذي حارب ابن الفضل وهزمه، والهادي إلى الحق هو الذي نشر المذهب الزيدي في اليمن، ومن سلالاته كانت الأسرة الملكية الأخيرة في اليمن.

وروى صاحب سيرة الهادي أنه عندما صار القرامطة " إلى المذيخرة، أظهر ابن الفضل ـ لعنه الله ـ المجوسية، وأمرهم بنكاح الأمهات والأخوات، وشرب الخمر، وحرّم جميع الحلال، وأحل جميع الحرام، وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومما جاء به من عند الله عزّ وجلّ، وتسمى بربّ العالمين ـ عليه سخط الله، ولعنة اللاعنين ـ وأمر من كان معه أن يسلموا الأموال والحرم، ويخرجوا إليه من جميع ما في أيديهم ...

فإذا كان ليلة الجمعة جمع الرجال فأرسلهم على النساء، فتقع الأم للابن، والأخت مع الأخ، فيفجروا بهن في ليلتهن تلك، فمن امتنع من ذلك قتله، وأباح حرمته لمن كان معه" [٢].

ومن الممكن التشكك بمسألة ادعاء ابن الفضل الربوبية، ولاسيما أننا نجد في نص المعري، الرجل الذي اتصل بأمه قد وصفه " بولي الله "، ويرجح هنا أن ابن الفضل أعلن عن قيامةٍ عظمى تماشياً مع مبادئ العقائد الإسماعيلية [٣]، وجاء إعلانه هذا ممزوجاً مع شيء من العصبية القبلية، في الصراع ما بين العدنانيين والقحطانيين، ذلك أنه أمر جواريه أن يضربن الدفوف على المنبر، ويغنين بشعر قاله، أوله:

خذي الدف يا هذه واضربي ... وغنيّ هزارك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرب
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام فلم نتعب [٤]

---

[١] الجامع في أخبار القرامطة، ص ٢٥٨.
[٢] حول القائم والقيامة، انظر الجامع في أخبار القرامطة، ص ٨٠ ـ ٨٣، ٩٩، ١٠٠.
[٣] الجامع في أخبار القرامطة، ص ٣٤١.
[٤] الجامع في أخبار القرامطة، ص ٣٧٦ـ ٣٨٢، ٤٦٨.

وأما ما ذكره المعري بأن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين قد تدبر اغتيال ابن الفضل، فمرجحٌ أنه جانب الصواب، وأن قيادة الدعوة الإسماعيلية هي التي فعلت ذلك، ووهم المعري أيضاً حين مزج بين علي بن الفضل، ومنصور اليمن (أبو القاسم النجار المعروف بالصناديقي)، فمنصور اليمن كان من دعاة الإسماعيلية الذين أرسلوا إلى اليمن، وهو إن كان قد جند عليَّ بن الفضل، لكنه اختلف معه وتحاربا.

وذكر المعري أيضاً عدداً عدداً ممن اتهم بالكفر، أو الإلحاد، أو الزندقة[١]، وكان من هؤلاء صالح بن عبد القدوس الذي أعدمه الخليفة العباسي [١٥٨ ـ ١٦٩هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥م] بتهمة الزندقة، وكانت الزندقة قد استشرت أيام هذا الخليفة، فتصدى لها.

وظهر في أيام المهدي ـ كما ذكر المعري ـ في بلاد ما وراء النهر " رجل قصار أعور، عمل له وجهاً من ذهب، وخوطب برب العزة، وعمل لهم قمراً فوق جبل ارتفاعه فراسخ، فأنفذ المهدي إليه، فأحيط به وبقلعته، فحرق كل شيء فيها وجمع كل من في البلد، سقاهم شراباً مسموماً، فماتوا جميعهم، وشرب فلحق بهم، عجّل الله بروحه إلى النار" [٢].

وسلف بنا أن أشرنا إلى أن المعري تشكك في عقيدة يزيد بن معاوية، الذي كان الخليفة الأموي الثاني، ومن الأمويين المروانيين تناول الوليد بن يزيد " الذي أقام في الملك سنة وشهرين وأياما "، والوليد بالنسبة للمعري كان كافراً لقوله:

إذا مت يا أم الحنيكل فانكحي ... ولا تأملي بعد الفراق تلاقيا

فإن الذي حدثته من لقائنا ... أحاديث طسم تترك العقل واهيا

ورمى المصحف بالنشاب وخرقه، وقال :

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب خرقني الوليد

وأنفذ إلى مكة بنّاء إلى مجوسياً ليبني على الكعبة مشربة، فمات قبل ذلك، ويستشف من كلام المعري أن الوليد بن يزيد كان مانوياً، سجد لصورة ماني وقبلها، وأنه كان بموضع حول دمشق يقال له البخراء، فقال :

تلعّب بالنبوة هاشمي ... بلا وحي أتاه ولا كتاب [٣]

---

[١] كان المقصود بالزندقة الديانة المانوية، انظر سهيل زكار، كتاب الزندقة، ط، دمشق، ٢٠٠٥م.

[٢] رسالة الغفران، ص ٢٢٧.

[٣] في الحقيقة البخراء قرب تدمر، وفيها قتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ومائة، ابظر تاريخ خليفة بن خياط، ط، دمشق، ١٩٦٨، ص ٥٤٨ ــ ٥٥١.

وذكر المعري من الملاحدة العباسيين أبا عيسى بن الرشيد القائل :

" دهاني شهر الصوم لا كان من شهر ولا صمت شهراً بعده آخر الدهر

ولو كان يعديني الإمام بقدرة على الشهرلا ستعديت دهري على الشهر

عرض له في وقته صرع، فمات ولم يدرك شهراً غيره" [١].

وحديث المعري عن الحسين بن منصور الحلاج ممتع ومهم، وذلك أنه كان متهوراً جسوراً يروم إقلاب الدول، ويدعي فيه أصحاب الإلهية، ويقول بالحلول، ويظهر مذهب الشيعة للملوك، ومذاهب الصوفية للعامة، وفي تضاعيف ذلك يدعي أن الإلهية قد حلت فيه ... وهو يعتقد أن العارف من الله بمنزلة شعاع الشمس، منها بدأ وإليها يعود، ومنها يستمد ضوءه ... وكان في كتبه: إني مُغرق قوم نوح، ومهلك عاد وثمود، وأن الحلاج هاجم المتصوفة بقوله :

أرى جيل التصوف شرّ جيل فقل لهم وأهون بالحلول

أقال الله حين عشقتموه : كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

وحكى المعري: أنه حكم السلطان على الحلاج في آخر سنة تسع وثلاثمئة :

" بضربه ألف سوط، وقطع يديه، ثم أحرقه بالنار" [٢].

وحكى المعري: أن أبا جعفر محمد بن علي الشلمغاني، الذي عرف بابن أبي العزاقر، وكان من أهالي منطقة واسط تأثر بالحلاج، وصورته صورة الحلاج، ويدعي عنه قوم أنه إله، وأن الله حل في آدم، ثم في شيث، ثم في واحد واحد من الأنبياء والأوصياء والأئمة، حتى حل في الحسن بن علي العسكري " الإمام الحادي عشر.

كما أتى على ذكر أحمد بن يحيى الرواندي الملحد، الذي كان من أهل مروا الروذ، وكان في بداية حياته " حسن السيرة، جميل المذهب، ثم انسلخ من ذلك كله بأسباب عرضت له، ولأن علمه كان أكثر من عقله " [٣].

---

(١) رسالة الغفران، ص ٢٢٩.

(٢) رسالة الغفران، ص ٢٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣١، ٢٣٢.

وأن ابن الرومي الشاعر كان يفكر بالانتحار أثناء اشتداد مرضه الأخير الذي مات منه، وروي أن الشاعر أبا تمام كان لا يصلي، وأنه حين عوتب على ذلك قال: " فلو كنت أعلم أن الصلاة تنفعني وتركها يضرني ما تركتها ".

وأشار المعري إلى القضاء على ثورة المازيار، وكذلك ثورة بابك الخرّمي، ومن بعد ذلك اعتقال القائد الأفشين، ومحاكمته، حيث تبين أنه لم يكن مسلماً، بل كان يبطن الكفر، وأنه كان متآمراً مع الأفشين ضد المعتصم العباسي، ولذلك أعدمهما هذا الخليفة، وعبارة المعري هنا مفيدة في أنه اعتمد على تآريخ كثيرة " وأن ضحايا ثورتي بابك والمازيار، كانت ثلاثة آلاف ألف وخمسمئة [١]

وكان الإمام جعفر بن محمد، الذي عرف بالصادق، من أعلى الأئمة مكانة وثقافة وعلماً، فقد كان أستاذاً لكل من الإمام مالك، وأبي حنيفة، وقد عاصر نهاية الدولة الأموية، وبداية العصر العباسي | (تـ ١٤٨هـ)، ويعتقد أنه في أيامه انقسم الخط الإمامي لدى الشيعة إلى قسمين: سبعي، واثني عشري، والسبعي هو الذي ينتمي إلى إسماعيل بن جعفر، الذي كان قد مات في حياة أبيه، وقام جدل آنذاك حول الإمامة هل هي بالاختيار الإلهي المسبق، أو بنص التعيين، وقال الإسماعيلية بأن الإمامة نور ينتقل من الأصلاب من كل إمام إلى ابنه البكر، وفي خضم هذا الخلاف ظهر في البصرة من يدعي أنه جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ وأنه متصل به، وروحه فيه ومتصلة به.

وبعدما أنهى المعري حديثه حول هذا البصري، قال: ولو استقصيت القول في هذا الفن لطال جداً، ولكن:

لابـــد للمـــصدور أن ينفـــثا وللـــذي في الـــصدر أن يبعـــثا

بل لو قلت كل ما أعلمه، أكلت زادي في محبسي [٢]، وليت المعري ذكر كل الذي كان يعرفه من أحداث التاريخ الإسلامي، ومع ذلك في الرسالة الكثير الكثير من الأخبار والتعليقات، ومن ذلك:

حديثه عن عبد الله بن ميمون بن القداح، الذي احتل مكانة كبيرة في الدعوة الإسماعيلية، ووجهت إليه المصادر المعادية للإسماعيلية تهماً كثيرة، منها أنه كان يهودياً، وأنه هو الذي أنجب سلسلة الأئمة الفاطميين، فابن ميمون كان عربياً من باهلة " وكان من علية أصحاب جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ وروى عنه شيئاً كثيراً، ثم ارتد بعد ذلك ".

---

(١) رسالة الغفران، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥، تاريخ خليفة، ص ٧٨٦ ـ ٧٨٨.

(٢) رسالة الغفران، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

وتناول ابن ميمون في شعره الإمام الصادق، من ذلك قوله:

قـد كـنـت معـروراً بـه بـرهـة ثـم بـدا لـي خبـر يـستر

وما حكاه المعري عن عبد الله بن ميمون، يفرض على الباحث إعادة النظر بما نسب إليه في المصادر الإسماعيلية وسواها، وإذا صدقنا أبيات الشعر التي نسبها المعري إليه، يصعب على المؤرخ أن يصدق زمنياً ما نسب إليه من أدوار، لا بل يصعب القول إنه بقي شيعياً، وأنه تخلى عن الصادق لتعيينه موسى الكاظم إماماً من بعده، ذلك أن إمامة الصادق مقررة عند الإسماعيلية، في حين قال ابن ميمون:

مـشيت إلـى جعفـر حقـبـة فألفيـتـه خادعـاً يخلـب [1]

كما أنه تناول الشيعة بأجمعهم بقوله:

فلـو كـان أمـركم صـادقاً لمـا ظـل مقـتـولكم يـسحب

وعلى الرغم من موقف ابن ميمون هذا قال المعري: " وعلي له سابقة، ومحاسن كثيرة، رائقة، وكذلك جعفر بن محمد ليس شرفه بالثمد " [2].

ولعل تعليق المعري حول أبي مسلم الخراساني، من أجمل ما قيل بالمؤسس العسكري للدولة العباسية: " والعجب لأبي مسلم ..... حطب لنار أكلته، وقتل في طاعة ولاة قتله، وليس بأول من دأب لسواه، وأغواه الطمع فيمن أغواه، وإنما سهر لأم دفر، وتبع سرابا في قفر، فوجد ذنبه غير المغتفر عند صاحب الدولة أبي جعفر " [3].

ومثلما علق المعري على أبي مسلم الخراساني، ذكر صاحب ثورة الزنج بقوله: " وأما العلوي البصري، فذكر بعض الناس، أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد قيس، ثم من أنمار، وكان اسمه أحمد، فلما خرج تسمى علياً، والكذب كثير جم، كأنه في النظر طود أشم، والصدق لديه كالحصاة توطأ بأقدام عصاة [4].

---

(١) رسالة الغفران، ص ٣٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٨.
(٤) رسالة الغفران، ص ٣٠٨.

وكان للمعري اهتمام خاص بالشعراء، ولم يعجبه سلوك ابن هانئ الأندلسي فقال: " وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده، يتوصل به إلى الدنيا الفانية ... وكان لهم في المغرب رجل يعرف بابن هانئ، وكان من شعرائهم المجيدين، فكان في مدح المعز أبي تميم معد، غلواً عظيماً، حتى قال يخاطب صاحب المظلة :

أمديرها من حيث دار لشد ما زاحمت تحت ركابه جبريلا

وقال وقد نزل بموضع يقال له رقادة : [على بعد حوالي العشرة أميال عن القيروان، حيث كانت قصور الأغالبة] :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح [١]

وعلى الرغم من اتهام المعري لابن هانئ بالغلو، كان ابن هانئ بالفعل متماشياً مع ما كان رائجاً ومأخوذاً به في البلاط الفاطمي، ولاسيما في أوساطه الداخلية، ويؤيد هذا كتابات القاضي النعمان، ولاسيما كتابه " الرسالة المذهبية في الحكمة والتأويل" التي لدي ثلاثة نسخ خطية عنها، وهي لم تنشر بعد.

وكان المعري معجباً بالمتنبي، وبشعره، ومع ذلك فلم يحاول بشكل جاد، أن ينفي عنه دعوة النبوة وأورد بعض الحكايات التي تدلل على معجزاته[٢]

والمواد الإخبارية التي أوردها المعري عن بعض شعراء ما قبل الإسلام مهمة جداً، وقد وزعهم على الجنة والنار، وكانت معايير المعري خاصة به، نابعة من معارفه اللغوية ومن مبادئه الأخلاقية، وعقيدته، فهو كان ضد الزندقة والإلحاد، وقد استنكر الإقدام على الانتحار، واتخذ موقفاً من النبي صلى الله عليه وسلم، كان رائعاً، قام على فهم وإدراك عميق، فقد قالت له قريش: أتباعك من هؤلاء الموالي: كبلال، وعمار، وصهيب، خير من قصي بن كلاب، وعبد مناف، وهاشم، وعبد شمس؟ فقال: نعم، والله لئن كانوا قليلاً ليكثرن، ولئن كانوا ضعفاء ليشرفن، حتى يصيروا نجوماً يهتدى بهم ... فاتبعوني أجعلكم أنساباً، والذي نفسي بيده لتقتسمن كنوز كسرى وقيصر ".

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣١٨.
(٢) المصدر نفسه ، ص٢٨٩ ــ ٢٩١.

واتخذ موقفاً وحدوياً إيجابياً من الصحابة جميعاً ، بأن روى واحد من الصحابة قوله : " لا تسبوا أصحاب محمد ، فإنهم أسلموا من خوف الله ، وأسلم الناس من خوف أسيافهم" [١].

وفي الحقيقة تحتاج رسالة الغفران إلى تحليل كامل للذي حوته من مواد تأريخية ، وهدا الجانب يستحق ـ وعن جدارة ـ أن يكون موضوعاً لرسالة جامعية.

---

(١) رسالة الغفران ، ص ٢٣٨ـ ٢٣٩.

قائمة المصادر والمراجع:

١. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق د. سهيل زكار، ط، دمشق ١٩٨٨.
٢. أبو العلاء المعري: رسالة الغفران، ط، دار صادر، بيروت.
٣. سهيل زكار: الجامع في أخبار القرامطة، ط، دمشق، ٢٠٠٧.
٤. سهيل زكار: كتاب الزندقة، ط، دمشق، ٢٠٠٥.
٥. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. سهيل زكار، ط، دمشق، ١٩٦٨.

❑❑